

الأصقاع الشمالية لنانسن

بمستلم

الدكتور أنور عبد العليم

أستاذ ورئيس قسم علوم البحار بكلية العلوم بجامعة الاسكندرية

١ - مقدمة

إذا ذكرت أخبار الرحالة والمستكشفين الذين كان لهم الفضل في التعرف على أطراف الكرة الأرضية - ونعني بها المجهل الواقعة في نطاق الدائرة القطبية الشمالية والدائرة القطبية الجنوبية - وجدنا على رأس هؤلاء المستكشف النرويجي « فريديوف نانسن » Fridtjof Nansen (١٨٦١ - ١٩٣٠) الذي كانت حياته مثالا من أمثلة البطولة والشجاعة النادرة ، فقد تحدى كل الآراء والمعتقدات التي كانت سائدة في عصره في سبيل ارتياد المجهل القطبية للوصول إلى القطب الشمالي . وحين تجمدت سفينته وسط الثلوج في رحلة استغرقت زهاء ثلاث سنوات في المحيط المتجمد الشمالي ، تركها وسار على الزحافات مع رجل من رجاله حتى وصلا إلى أقرب نقطة وصلها إنسان من قبل من القطب الشمالي نفسه . ويعيد نانسن رائداً من رواد الكشف العلمي للمحيط المتجمد الشمالي ؛ وبفضله أيضاً كان النرويجيون أول من وصل إلى القطب الجنوبي ورفعوا علم بلادهم فوقه .

لقد كان نانسن طرازاً فريداً بين الرجال ، ولا

ترجع شهرته إلى كونه مستكشفاً وعالماً فذاً من علماء البحار فحسب ، بل كان كاتباً قديراً وخطيباً وسياسياً وسفيراً لبلاده ، وهب حياته للإنسانية جمعاء ، وإليه يرجع الفضل في حل مشكلة نصف مليون أسير من أسرى الحرب العالمية الأولى ، وحل مشكلة اللاجئين الأرمن بعد تلك الحرب ، وقد منح جائزة نوبل للسلام عام ١٩٢٣ . وكان يتمتع باحترام جميع الدول التي دخلت الحرب الأولى ، على حد سواء ، بفضل حياده ومبادئه الإنسانية . ولقد نعتته المؤرخون بقولهم « إنه الرجل الذي جمع فضائل أمة بأسرها » .

ويعد كتابه « الأصقاع الشمالية » المنشور بالانجليزية في مجلدين كبيرين عام ١٩١١ - والذي طبع بعد ذلك مراراً - من أمتع كتب الرحلات وأكثرها إثارة . وقد ضمنه أخبار رحلاته المليئة بالأخطار في أصقاع الشمال من واقع مذكراته التي كان يدونها يوماً بيوم ، فضلاً عن التقارير العلمية التي كتبها وأضافها الكثير إلى معلوماتنا عن المحيط المتجمد الشمالي وبحاره . ويعيد هذا الكتاب إلى الأذهان قصص « الساجا » Saga الأسطورية التي نسجت قديماً حول أبطال « الفيكينج » Viking من أهل اسكندنافيا .

وقبل أن نقدم نانسن وكتابه للقراء ، نرى لزماً علينا أن نستعرض المحاولات التي سبقت عصره في سبيل الكشف عن مجاهل البحار القطبية الشمالية . هذا وقد تعرض نانسن في كتابه آنف الذكر لقصة استكشاف أهل اسكندناوة لأمريكا باستفاضة كبيرة وهذه سنشير إليها في موضعها من هذا المقال .

وجدير بالذكر أن السفينة الخشبية التي وضع نانسن تصميمها وأنجز عليها رحلاته ، وأطلق عليها اسم « فرام » Fram أى « إلى الأمام » ، قد حولت إلى متحف فوق جزيرة صغيرة في خليج أوسلو ، وعليها نفس المعدات والملابس التي استعملها نانسن . ولا تزال هذه السفينة إلى اليوم بمثابة كعبة يحج إليها أهل النرويج على بكرة أبيهم والسائحون الأجانب على حد سواء .

٢ - تاريخ استكشاف المجاهل القطبية

في مهد الحضارة البشرية لم يكن يحول مخاطر الإنسان مجرد وجود ما يسمى بالمناطق القطبية ، ناهيك بمساحات شاسعة في أطراف الأرض تغطيها جبال من الجليد فوق الأرض اليابسة أو الماء . ذلك لأن تلك الحضارة أو الحضارات القديمة - نشأت في أودية الأنهار الخصبة في مصر أو العراق والصين أو الهند - وكلها مناطق معتدلة أو حارة المناخ .

وأول إشارة لوجود الأرض المغطاة بالجليد في التاريخ جاءتنا في أعقاب رحلة قام بها ملاح يوناني قديم يدعى بيثياس Pytheas في عام ٣٢٥ قبل الميلاد إلى الأصقاع الشمالية . ويعتبر المؤرخون هذا الملاح في الواقع أول مستكشف قطبي . فقد خرج من مدينة ماسيليا Massilis وهي مستعمرة أغريقية قديمة في البحر المتوسط في مكان الميناء الذي يعرف اليوم باسم مرسيليا في جنوب فرنسا ، بقصد الإثراء ، بحثاً عن « العنبر » ، من مضيق جبل طارق متجهاً إلى الشمال حتى بلغ إنجلترا واسكتلندا ، ومن هناك اخترق بحر الشمال حتى وصل

إلى « الأرض الخارجية » التي سماها « ثولا » Ultima Thule والتي رجح بعض الرهبان الأيرلنديون بأنها جزيرة « ايسلندا » . إلا أن نانسن حددها فيما بعد بالمنطقة الخيطة « بروندهيم » على سواحل النرويج . وتعتبر هذه الرحلة في نظر المؤرخين ذات دلالة خاصة حيث ألفت الضوء على الأصقاع الباردة لأول مرة .

وفي القرن التاسع الميلادي اكتشف الملاحون من أهل اسكندناوة القديمة المعروفين بالفيكينج Viking جزيرة ايسلندا ، وكانوا قبائل ذات بأس شديد وشجاعة حتى إن الرجل منهم كان لا ينام مضطجعاً ، بل في وضع القرفصاء متحفزاً لقتال وخنجره في يده ، كما بنوا مراكز طويلة خرجت في رحلات بعيدة عن الشاطئ . وبعد ذلك بزمان وجيز ، وعلى وجه التحديد في حوالي عام ٩٨٣ اكتشف هؤلاء الملاحون أيضاً جزيرة جرينلاندة وعمروها لخمسة قرون ، وبنوا على شواطئها مدناً وموانئ اتخذوها قواعد للتجارة مع بلدان أوروبا . ولم يكتفوا بذلك بل ساروا بمراكبهم بحذاء سواحل أوروبا في أقصى الشمال شرقاً حتى جزيرة « نوفازميليا » الواقعة على بحر « كارا » في أقصى الشمال من الاتحاد السوفيتي والتي يجري فيها السوفييت اليوم تجارب التفجيرات النووية .

وبحدثنا التاريخ أن قبائل الفيكينج قد اختفوا فجأة من تلك الأصقاع لسببين : إما لأن قبائل الاسكيمو الذين وفدوا من آسيا قد أبادوهم ، أو لأن موجة من البرد الشديد قد قضت عليهم في جرينلاندة .

وتعد الفترة من أواخر القرن العاشر الميلادي حتى أواخر القرن الخامس عشر الميلادي وهي الفترة التي انتهت باستكشاف كولمبس لجزر الهند الغربية - فترة مظلمة في تاريخ استكشاف الأصقاع الشمالية .

ونعود إلى قصة استكشاف الفيكينج لأمريكا قبل كولمبس بزمان طويل وهي التي أفرد لها نانسن في كتابه عناية خاصة ، ربما لبواعث قومية ، فنجده يقول لقد

كان أهل اسكندناوة وعلى الأخص أهل النرويج ، رواد البحر الأول ، فقد ابتكروا وحسنوا نماذج بناء المراكب . لقد كان البحر صنعتهم وكان حبه متأصلاً في نفوسهم ، ولذا جابوا البحار الشمالية وبفضالهم طورت المعلومات الجغرافية عن البحار . إن النرويجيين هم أول من خرج إلى المحيط بعيداً عن الساحل ، وعندهم تعلمت الأمم الأخرى .

وتقول القصة إن « ليف ايركسون » ابن « ايريك الأحمر » كان أول من وصل إلى أمريكا حوالي عام ١٠٠٢ م . وفي رأى آخر إنه « بيارنى هريولفسون » من أهل اسكندناوة أيضاً . ففي حوالي عام ٩٨٥ م عاد « بيارنى » من رحلة له للتجارة بين النرويج وايسلندا فوجد أن أباه قد رحل إلى جرينلاندة مع ايريك الأحمر فعزم على السفر إليه وشد شراعه إلى تلك الجزيرة ، ويقال إنه ضل طريقه في الضباب فحطت مركبه على السواحل الشمالية لأمريكا في الموقع المعروف باسم « رأس كود » الآن .

أما رحلة ليف بن ايريك فكانت بعد ذلك كما أشرنا ، فقد ضل هو الآخر طريقه إلى جرينلاندة وحملته الريح إلى لبرادور على شواطئ كندا . ومن ثم أبحر جنوباً على سواحل « نوفاسكوتيا » ، فوجد أرضاً خضراء ينمو فيها القمح والكروم وسماها ليف « أرض الكروم » Wineland وقضى فيها ليف وبجاراته وقتاً قصيراً ثم قفلوا راجعين إلى جرينلاندة مرة أخرى ، وهناك استقر ليف وجمع ثروة كبيرة . وكان لهذا الملاح أخ يدعى « ثورفالد » أبحر هو الآخر إلى أمريكا حوالي عام ١٠٠٤ م وعسكر في نفس المكان الذي نزل فيه أخوه من قبل ، ولكنه قتل في معركة مع الهنود الأحمر ولإيريك الأحمر ابن ثالث هو « تورستن » يحكى أنه هو الآخر قام بمحاولة ثالثة فاشلة إلى أمريكا . وبذلك فتح ايريك وأولاده الطريق لأهل اسكندناوة إلى الدنيا الجديدة ، وتتردد أخبار ملاح آخر من أهل ايسلندا

يدعى « تورفين » يقال إنه نجح في الوصول إلى تلك القارة . وأقام الفيكنج على سواحل أمريكا الشمالية بيوتاً على غرار بيوتهم في بلادهم ، بل ويقال أيضاً إنه عثر على حجارة عليها نقوش اسكندناوية قدمة في تلك السواحل . بيد أنهم لم يعمرُوا طويلاً هناك إذ أبادهم الهنود الأحمر من سكان أمريكا الأصليين .

ويعتبر عام ١٤٩٢ م وهو العام الذي اكتشف فيه كولمبس أمريكا ذا أهمية خاصة أيضاً بالنسبة لاستكشاف الأصقاع الشمالية . فمنذ أن عرف الناس في غرب أوروبا أن أمريكا تقف عقبة في سبيل الملاحة إلى الهند - وهي جزر التوابل والثراء الذي كانوا يبحثون عنه ، فكروا في الوصول عن طريق الملاحة شمالاً - ومن هنا نشأت فكرة البحث عما أسموه « بالممر الشمالى الشرقى » . وكان ذلك حافزاً لبعض الملاحين المغامرين على السير شمالاً بسفنهم بغية اكتشاف ذلك الممر .

وكان أحد هؤلاء المغامرين هو الملاح بارنتز Barents الهولندى الذى أبحر عام ١٥٩٤ - أى بعد كولمبس بقرن من الزمان - تجاه سواحل النرويج الشمالية ثم في المحيط المتجمد الشمالى واكتشف البحر الكائن بشمال روسيا الذى يسمى اليوم ببحر « بارنتز » . وجدير بالذكر أن الثلوج تجمدت حول سفينة هذا الملاح وبقي محبوساً لمدة عام كامل في المحيط المتجمد الشمالى ، وذلك بعد أن اجتاز بحر بارنتز إلى بحر كارا القريب منه . ويؤثر عنه أنه رسم خرائط دقيقة لأول مرة لتلك الأصقاع الشمالية ، وكان علم الخرائط الجغرافية قد ازدهر ازدهاراً كبيراً في هولندا في وقته في الفترة التى أعقبت ازدهاره في إيطاليا في وقت كولمبس .

وفي أواخر القرن السادس عشر وأوائل القرن السابع عشر الميلادى تم استكشاف الجانب الأكبر من سواحل أمريكا الشمالية وذلك في الفترة بين ١٥٨٦ - ١٦٢٠ على أيدي جون ديفيز John Davis وهنرى هادسون H. Hudson ووليام بافين W. Baffin وقد

وصل بعض هؤلاء الملاحين إلى سواحل جرينلاندة الجنوبية .

ولما يئس الملاحون من اكتشاف الممر الشمالى الشرقى - بعد بارتز - صوبوا وجههم نحو اكتشاف « الممر الشمالى الغربى » ، وذلك بالإبحار فى الاتجاه المضاد وكان أول من نجح فى ذلك هو ملاح دانمركى عرف باسم برنج Bering كان يعمل لحساب حكومة روسيا وذلك فى عام ١٧٢٥ الميلادى . وفضلا عن أن هذا الملاح قد اكتشف كثيراً من الجزر فى المحيط المتجمد الشمالى لأول مرة - إلا أن اكتشافه للممر الملاحى العظيم الذى يفصل بين أمريكا وآسيا من أقصى الشمال ، كان أعظم أعماله . ولذا سمى هذا الممر باسمه ، وهو المعروف اليوم باسم « مضيق برنج » . ومن هذا المضيق خرج « برنج » لأول مرة إلى المحيط الهادى واكتشف شبه جزيرة كامشاتكا Kamchatka . ويقع هذا المضيق بين ألاسكا وسيبيريا . كما هو معروف . وفى عام ١٧٣٤ م قام برنج برحلة أخرى حدد خلالها - لأول مرة - كثيراً من سواحل روسيا الشمالية وانتهى به المطاف فى ألاسكا بأمريكا الشمالية . وفى رحلته الثالثة عام ١٧٤١ جنحت سفينته فى الأصقاع الشمالية ، وتوفى هذا الملاح الباسل بمرض الأسقربوط بيد أن سوء الأحوال الجوية فى الأصقاع الشمالية لم تشجع الملاحين بين آسيا وأوربا عن طريق الممر الشمالى الغربى ، هذا بالإضافة إلى أن الروس أنفسهم لم يشجعوا الملاحين عبر هذا الطريق خوفاً من الاستعمار الأجنبى .

وخلال القرن السادس عشر الميلادى قام الإنجليز بمحاولات أخرى لاستكشاف الممر الشمالى الغربى لكنها باءت بالفشل . وحتى الملاح الإنجليزى الشهير «الكابتن جيمس كوك» James Cook الذى كان قد جاب المحيط الهادى واكتشف استراليا قرر فى نهاية القرن الثامن عشر أنه لا يوجد طريق آمن للملاحة شمالاً إلى آسيا سواء من الشرق أو الغرب .

ولما أعيت الحيل بريطانيا فى استكشاف طريق إلى آسيا عبر الشمال ، رصدت جائزة قدرها ٢٠,٠٠٠ جنيه لمن يتعرف على مثل هذا الممر - كما رصدت جائزة أخرى قدرها ٥٠٠٠ جنيه لأول سفينة تصل إلى خط عرض ٨٩ شمالاً .

وخلال القرن التاسع عشر - كانت أول السفن التى تسير بالبخار قد جهزت للملاحة ، فظن الإنجليز أن مثل تلك السفن كفيلة بتخطيم الجليد الذى يعترض طريقها عبر الممر إلى آسيا من الشمال - فجهزت الأميرالية البريطانية سفينتين من هذا النوع هما « اريبس » H.M.S. Erebis (٣٧٠ طن) و « ترور » H.M.S. Terror (٢٤٠ طن) بقيادة جون فرانكلين ومعه طاقم من البحارة والضباط عدده ١٢٨ فرداً ، وكلفته بالملاحة عبر الممر الشمالى الغربى إلى آسيا وذلك فى عام ١٨٤٤ . ولأزم سوء الطالع هذه البقية ، فهلك رجالها عن آخرهم ولم يعثر لهم على أثر سوى جثث ثلاثين من البحارة متجمدين فى أصقاع كندا القطبية وبعد أن حاصرت الثلوج سفينتهم لمدة عامين كاملين . وهنا تردد حكاية غريبة مؤداها أن زوجة الأميرال فرانكلين استخدمت كل الوسائل الممكنة للتعرف على المكان الذى هلك فيه زوجها حتى إنها لجأت إلى تحضير الأرواح ودلتها روح صبية صغيرة توفيت فى أيرلندا على خريطة للمكان . وتقول المصادر الموثوق بصحتها إن البعثات التى ذهبت للبحث عن ضحايا تلك البعثة المشنومة تأكدت من صحة هذا الموقع .

وفى عام ١٨٨٤ حاولت بعثة أمريكية بقيادة الكابتن جريلى Greely أن تصل إلى أبعد من خط عرض ٢٤ و ٨٣ شمالاً فباءت هى الأخرى بالفشل . وهلك عدد كبير من أفرادها بسبب تجمد الثلوج حول سفينتهم فتكسرت أضلاعها . وجددير بالذكر أن الماء إذا تجمد زاد حجمه فيضغط الجليد على جوانب السفينة بقوة كبيرة تكون كفيلة بتخطيمها . وقد وصلت أول سفينة

من عمره كان بطل الانزلاق على الجليد للمسافات الطويلة في الترويج كلها ، وفي سن الثامنة عشرة حطم الرقم القياسي الدولي لسرعة الانزلاق لمسافة ميل ، كما أنه فاز بالبطولة على الترويج كلها في أول محاولة له لسباق الماراثون .

وقد هوى نانسن دراسة التاريخ الطبيعي لاتصال هذه الدراسة بالحقول والجبال والأدغال والبحر والحياة الحرة الطليقة التي يهواها ، لذلك تخصص في دراسة علم الحيوان في جامعة أوسلو ، وذلك رغم ميله في نفس الوقت لدراسة الرياضيات والفيزياء .

وحينما بلغ العشرين من عمره ، وكان لا يزال طالباً بالسنة الثانية في الجامعة - وافته الفرصة التي غيرت مجرى حياته ، إذ عرض عليه أحد قباطنة السفن التي تجوب البحار القطبية بين ايسلندا وسبتربرجن أن يعمل بحاراً على سفينة المسماة باسم « الفيكنج » . ورأى نانسن الطالب وقتئذ في هذا العرض فرصة ذهبية لدراسة الحيوانات القطبية على الطبيعة فلم يتردد في قبول العرض ، وخدم على السفينة بحاراً تحت التمرين بروح رياضية عالية وعزيمة صادقة . وفي تلك الرحلة دون نانسن يومياته التي نشرها فيما بعد في كتاب بعنوان « الصيد والمخاطرة في البحار القطبية » . وفي تلك الرحلة عشق نانسن حياة البحر ولم ترهبه أهواله . وتنجلى ملكته في التعبير والكتابة منذ حادثته من قوله :

« وبعد أن جئنا في البحر ثلاثة أيام هبت عاصفة مروعة لم تدع لنا فرصة لضم الشراع فتصدع الصاري الرئيسي تحت قوة الريح . ولحنا من خلال الظلمة في اتجاه هبوب الريح صرير قمم الأمواج البيضاء المميزة للبحر العالي ، وهي ترتفع وتتكسر وتلطم مؤخرة السفينة محدثة صوتاً كصوت الرعد . فتناثر الرذاذ عالياً كالنافورة تلمع قطراته كاللآلئ ، ثم ما لبثنا أن هويينا في ظلمات البحر المجهولة . . » .

إمداد لانقاذ البعثة المذكورة بعد عام واحد فوجدت من بقى على قيد الحياة من أعضائها في حالة يرثى لها من الضعف والمرض ، بسبب نقص التكوين ونقص الفيتامينات ، حتى إنهم اضطروا لمضغ جلود الحيوانات التي كانوا يتدثرون بها !

وجدير بالذكر أن الاعتقاد حتى ذلك الوقت كان سائداً بأن الأرض التي في أقصى الشمال من المعمورة والتي تعرف باسم جرينلاندة تمتد حتى القطب الشمالي نفسه ، وتكون ما عرف باسم القارة القطبية الشمالية . بيد أن أحداً قبل نانسن لم يستطع أن يتوغل في هذه الأرض شمالاً بسبب الجليد والزمهرير والعواصف الثلجية التي تصم الآذان ، كل ذلك بالإضافة إلى طبيعة الأرض الوعرة التي تكتنفها شقوق عميقة في الجليد نفسه لا يمكن لإنسان اجتيازها .

هذا وقد دون نانسن بنفسه قصة حياته ومغامراته في البحار القطبية في كتابه آنف الذكر .

٣ - نشأة نانسن وحياته

ولد فريديوف نانسن في العاشر من أكتوبر عام ١٨٦١ في ضيعة لأمه قرب مدينة أوسلو . وكان أجداده لأبيه من مقاطعة « شليزويج هولستين » الألمانية ومن كبار تجارها ، ثم استقر فرع منهم في الترويج فيما بعد وإلى هذا الفرع ينتمي نانسن . وقد كان للبيئة التي نشأ فيها نانسن في طفولته أكبر الأثر في تكوين شخصيته فيما بعد . فقد نشأ وسط الأدغال والحقول والجبال التي يكسوها الجليد شتاء وعلى مقربة من البحر . لذا أغرم بالانزلاق على الجليد منذ طفولته وهوى الصيد صيفاً في مياه الخليج . وكان محباً للمخاطرة والحياة الخشنة منذ صباه . وقد دمغته هذه الحياة الطليقة في الجبال والأدغال بصفات إنسانية سامية كالجرأة والشجاعة والاعتماد على النفس ؛ كما تعلم في صباه كثيراً من الحرف اليدوية ، وعندما بلغ السابعة عشرة

صغيرة كهذه وضعتها الأقدار في ظروف سيئة للغاية
في بحار باردة هائجة ماثجة بقوله :
« كان ثمة مرح كثير ، وعمل دائب » .

لقد كان نانسن محباً لوطنه كل الحب ، تسيل
عيناه دمعاً حيناً تترأى له جبال النرويج من بعيد
ويطير قلبه من الفرحة ؛ في أعقاب كل رحلة من
رحلاته رجع فيها إلى أرض الوطن . انظر إلى قوله
عقب عودته من أول رحلة له في البحار القطبية « حقاً
إن جبال النرويج لأحب إلى نفسي مما سواها ، لا سيما
لأنها ترتفع رأساً من البحر » .

وعقب عودة نانسن في عام ١٨٨٢ من الرحلة
الأولى السابق ذكرها بوقت قصير ، عين أميناً لمتحف
علم الحيوان في برجن Bergen ولم تكن سنه يومئذ
تتعدى إحدى وعشرين سنة . وخلال الفترة التي شغل
فيها هذا المنصب تطوع للعمل في المستشفى الحكومي
كما انتخب عضواً في بلدية المدينة التي نشأ فيها . وقد
استطاع أن يحول المتحف الذي كان يعمل فيه
مجرد مكان لحفظ العينات إلى مركز نشيط من مراكز
البحث العلمي في النرويج . وعكف هو نفسه على دراسة
الحيوانات الدقيقة تحت المهر لمدة ست سنوات متواصلة .
وخلال تلك الفترة أيضاً تمكن نانسن من نشر كتاب
عن « الرياضة في جبال النرويج » .

وأحجم نانسن عن التدخين والشراب لاعتقاده بأن
مثل هذه العادات لا تتناسب مع الحياة الرياضية التي كان
يحياها . وقد كان لذلك أثره ولا شك في قدرته على
تحمل المشاق في ظروف الاستكشاف المروعة التي
تعرض لها في الجبال القطبية . وهو يعتقد أن النشاط
أو التنبيه المؤقت الذي قد يعثر الإنسان نتيجة التدخين
أو الشراب تعقبه فترات خمول تترك أثراً أسوأ ، كما تجعل
المرء أسيراً لمثل هذه العادات .

وفي عام ١٨٨٥ تمكن نانسن من نشر أولى بحوثه
الضخمة في علم الحيوان وهي التي قضى في إنجازها ست

وهو يصف رؤيته للجليد الذي يغطي سطح البحر
في هذه الجبال لأول مرة في شاعرية جذابة بقوله
« في الثامن عشر من مارس لمحت الجليد لأول مرة ..
كنت أرقب الأفق من أعلى السفينة فلاححت لي أشباح
بيضاء بعيدة وسط الظلام ، أخذت تكبر رويداً
رويداً ، ويزداد بياضها وضوحاً وسط أرضية حالكة
كالليل . وكانت هذه الطلائع الطافية من الجليد بمثابة
المقدمة لجيش عرم من حقول الجليد الممتدة بعيداً إلى
الشمال في الليل القطبي ، فيما وراء النجوم ، وفيما وراء
الشفق القطبي » .

بيد أن هذه الموهبة الأدبية على الكتابة لم تحجب
نانسن الباحث المدقق عن أن يسجل ملاحظات علمية
قيمة للغاية خلال هذه الرحلة عن اتجاهات الجليد في
دورانه في المحيط المتجمد الشمالي وعن تصحيح نظريات
تكوين الجليد في البحار القطبية التي كانت تقول بأن
الجليد يتكون لأول وهلة تحت سطح الماء ثم يطفو ،
ولا تزال آراء نانسن هي الصحيحة حتى اليوم .

كما أنه أثبت خلال هذه الرحلة من قياسه لدرجات
الحرارة على السطح وتحتة ومن تقديره لدرجات ملوحة
الماء - أن تيار الخليج الدافئ في الأصقاع الشمالية يسير
تحت الطبقة السطحية الباردة للماء ، وإلى جانب هذه
المعلومات الطبيعية عن ماء البحر فقد سجل نانسن
معلومات بيولوجية هامة عن الحيتان وعجول البحر
النادرة وطبائعها .

وقد خرج نانسن من هذه الرحلة أيضاً بنتيجة أخرى
كانت على جانب كبير من الأهمية في حياته المستقبلية ،
وهي اكتسابه خبرة نادرة في الإلمام بكل ما يجري على
سطح السفينة وبقيادة الرجال تحت أسوأ الظروف الممكنة
في البحر - الأمر الذي جعل منه في المستقبل قيادة من
القيادات النادرة في تنظيم بعثات الكشف العلمية وفي
سياسة الرجال والحكام . ويحمل نانسن الحياة على سفينة

سنوات في المتحف . وقد منح على هذا البحث الميدالية الذهبية ، إلا أنه أصر على أن تكون الميدالية من النحاس ويرصد فرق الثمن لرحلة يزور فيها محطة الأحياء البحرية في نابولي وقد كان . وهناك قابل أنتون دورن A. Dohrn الألماني مؤسس هذه المحطة الشهيرة في نابولي التي أعجب نانسن بنظامها ، فصمم على أن ينشئ في وطنه محطتين على شاكلتها : واحدة في برجن والأخرى في فروندهييم Frondheim .

وبعد ذلك بعام تمكن نانسن من نشر بحوثه عن الجهاز العصبي في الحيوانات البحرية التي نال عليها درجة الدكتوراه .

ليس هذا كل ما يمكن أن يقال عن نانسن ولا بعضه — فلا تزال نواحي العظمة والبطولة تتجلى في هذا الرجل في كل عمل من أعماله التي أنجزها في السنوات القادمة من حياته ، فلنتابع التسلسل التاريخي للحوادث نندع أعماله نتحدث عنه .

٤ — عبر جرينلاندا (١٨٨٨ — ١٨٨٩)

لعل نانسن كان أول إنسان قدر له أن يخترق جزيرة جرينلاندا لأول مرة من الشرق إلى الغرب ، فلم يجرؤ امرؤ قبله على الإقدام على مثل هذا العمل .

ورغم أن بعض المواقع على السواحل الجنوبية لهذه الجزيرة كانت معروفة لصيادي الحيتان وعجول البحر — إلا أن الأراضي الداخلية كانت مجهولة تماماً . وتعتبر هذه الجزيرة — التي لم تكن تعرف بعد عما إذا كانت قارة متصلة بالقطب الشمالي أو جزيرة أو شبه جزيرة — بمثابة طاقة الجليد العظمى في نصف الكرة الشمالي ، ومن ثلاجتها الساحلية تتكسر جبال الجليد التي تهيم في شمال المحيط الأطلسي والتي تسبب جبل منها في غرق الباخرة تيتانيك في أوائل هذا القرن ، كما تسبب جبال أخرى منها حوادث فادحة للسفن من آن لآخر حين تصطدم بها

وحين صمم نانسن على ارتياد جرينلاندا طلب منحة متواضعة قدرها ٣٠٠ جنيه من الجامعة فرفضتها السلطات ، بل وتهكمت عليه الصحافة حتى إن إحدى الصحف نشرت عنه ما يلي في مجال المداعبة والتهكم : « يعزم أمين المتحف نانسن القيام باستعراض مشر في الانزلاق على الجليد فوق جرينلاندا وتحجز الأماكن لمشاهدة العرض في الأخاديد الجليدية ، ولا تنس أن تحتفظ بتذكرة العودة ! .. » .

بيد أن كل ذلك لم يثن نانسن عن عزمه ، ولقيت الفكرة تأييداً من أحد رجال الأعمال في كوبنهاجن فصمم على تمويلها . وبدأ نانسن في الإعداد لها ، فجهز ما خف حمله من المؤن والعتاد ووضع كل خبرته في إنجازها ورأى لمخبرته أن يختصر عدد أفرادها إلى أقل ما يمكن ، وكان يسهر الليالي الطويلة في مضجعه يتصور كل العقبات والصعوبات التي يمكن مصادفها وكيف يجد الحلول لها .

وأخيراً استقر رأيه على أن يكون عدد أفرادها خمسة من الرجال غير المتزوجين ممن تتراوح أعمارهم بين الثلاثين والأربعين واشترط فهم أن يكونوا من أبطال الانزلاق على الجليد ، وأن يكون عتاد الرحلة مما خف حمله . ثم إنه وضع تقليداً جديداً وهو ألا يعود من نفس الطريق الذي سلكه وألا يترك المؤن في الطريق خلفه حتى لا تتقاعس همة الرجال عن مواصلة السير . وفوق كل هذا وذاك فقد صمم بنفسه وبناء على خبراته السابقة أنواع الأحذية والملابس وأدوات النوم والمطبخ وأنواع الزحافات التي يمكن التعويل عليها . ولما كان نجاح أي بعثة للكشف يتوقف على حسن اختيار الرجال فقد كان نانسن حريصاً جداً من هذه الناحية . وأخيراً تم له اختيار أعضاء البعثة وكانوا ثلاثة من أهل اسكندنافيا الأشداء بينهم الربان الشهير أوتو سفردروب Otto Sverdrup الذي قدر له فيما بعد أن يكون ربان السفينة التي أقلت البعثة النرويجية لاستكشاف

القطب الجنوبي وديتريشسون Dietrichson ذلك
الفتى الذى قدر له هو الآخر أن يكون فيما بعد «ماريشالا»
للجيش النرويجي ، عدا اثنين من أهل لابلند توسم فيهم
نانسن القدرة على تحمل مشاق الرحلة :

ثم أبحرت هذه البعثة الصغيرة من النرويج في ٩
مايو عام ١٨٨٨ على إحدى مراكب الصيد إلى ايسلندا
ومن هناك أخذت سفينة صغيرة من سفن صيد عجول
البحر إلى الشواطئ الشرقية لجرينلاندة مارة بجزر
فاروس . وقد قابلت البعثة في تلك الجزر عاصفة بحرية
عاتية لم تقعد أعضائها عن مواصلة السير بتصميم
وإيمان .

وبدأت الأهوال تناوئ البعثة حين أشرفت على
سواحل جرينلاندة فلم تجد السفينة ملجأً تلجأ إليه وسط
جبال الجليد الطافية أو التيارات التى كانت تدفعها دائماً
إلى الجنوب ، وظلت السفينة الصغيرة زمناً طويلاً تدور
مع الجليد والتيارات من الشمال إلى الجنوب حتى شهر
يولية من تلك السنة حين أتيح لها أن ترسو على ساحل
وعر تكتنفه تلال من الجليد الوعر المتكسر ومن خلفها
حائط من الجليد يزيد ارتفاعه على مائة متر ، دون أن
تجد السفينة فرجة واحدة ترسو فيها على الساحل :

وبعد لآلى ومشقة تمكنت السفينة من الرسو على
بقعة بحذاء الساحل نزلت منها البعثة فوق قطعة عائمة من
الجليد ، ما لبثت أن تصدعت في وسط الليل وانشطرت
إلى شطرين . ولولا شجاعة الرجال وعلو همتهم ،
ومقاومتهم تلك الطبيعة العنيفة لهلكوا عن آخرهم .
وأخيراً تم لهم النزول إلى الشاطئ في مكان ينحرف إلى
الجنوب بنحو ٣٥٠ ميلاً عن البقعة التى كان مقدراً لهم
أن يرسو عليها .

وصادفتهم عقبات أخرى منها وعورة هذا الشاطئ
الجليدى وشتو البرد والرياح ، ثم كان عليهم أن يتسلقوا
هذا الحائط الجليدى القائم خلف الشاطئ الوعر ، وأن

يحملوا أدواتهم ومعداتهم فوق المرتفعات الجليدية التى
تكتنف الجزيرة وأن يجدوا سبيلاً لتلافي الأخطار
العميقة التى لا يرى أثر لمن يسقط فيها ! وكان عليهم أن
يغذوا السير في الليل والنهار في درجات من الحرارة
تصل في بعض الأحيان إلى أربعين درجة مئوية تحت
الصفر ! كما كان عليهم أن يحملوا الزحافات فوق
تلك المرتفعات أو أن يقطعوا أربعين من الأميال في
اليوم واليلة في أرض وعرة تكسوها طبقات الجليد
وينهمر من فوقهم البرد وتلفح وجوههم رياح باردة
كأسنان الريح تنجمد معها أنوفهم وآذانهم كقطع
«الرقاق» الجاف إذا توانوا عن نزع الجليد من فوقها ؛
أو يصابون «بعضة البرد» التى تسبب سريان
«الغغرينا» في أصابع الأيدي والأرجل ؛ أو يصابون
بالعمى من جراء انعكاس أشعة الشمس فوق الثلوج
البيضاء . . تلك كانت حال الرجال في تلك البعثة ، كما
هى الحال دائماً مع أى بعثة أخرى تجرؤ على اجتياز
المناطق القطبية . ولولا سهر نانسن وبقظته وحكمته
وحسن تدبيره لهلك أفراد بعثته مع من هلكوا من قبل
أو من بعد في تلك الأصقاع :

بيد أن الأفق أبت إلا أن تكافئ كل مجد يسعى
في سبيل العلا بهمة وصبر فكتبت لنانسن ولبعثته النجاة
وتمكنوا لأول مرة من الوصول إلى الشاطئ الغربى
للجزيرة وكان ذلك في شهر نوفمبر عام ١٨٨٨ . وجدير
بالذكر أن هذا الشهر هو نذير بدء الليل القطبي في تلك
الأصقاع ، فلا ترى الشمس فيه في وضوح النهار إلا لماماً
ويسود الظلام القطبي في تلك المناطق شهوراً متواصلة !

وحين أشرفت البعثة على الشاطئ الغربى وجدت
حفنة من أهل الاسكيمو ممن استوطنوا ذلك الشاطئ ،
ولشد ما كانت خيبة أملهم حين علموا أن آخر سفينة
من سفن عجول البحر قد أبحرت أو أوشكت على
البحار من مكان بعيد إلى الجنوب .

٥ — رحلة السفينة « فرام » Fram

(١٨٩٣ — ١٨٩٦)

منذ عاد نانسن من رحلة جرينلاندة صمم على أن يكون هدفه هذه المرة هو القطب الشمالى نفسه . وكان قد اختمر في ذهنه نظرية « دوران الجليد » عبر القطب الشمالى نفسه ، حين وجد أخشاباً من سيبيريا حملتها الثلوج والتيارات الدائرية إلى شواطئ جرينلاندة نفسها كما كان على علم أيضاً بأن أى مركب تحاصرها ثلوج الشتاء في تلك الأصقاع فصرها معروف ، ومآل بحارتها إلى هلاك محقق . وهنا تتجلى عبقرية نانسن مرة أخرى وتحديه للمعتقدات التي كانت سائدة في عصره حين فكر في تصميم سفينة تقاوم ضغط الجليد المتجمد حولها ورأى أن تكون جوانبها محدودة فبدلاً من أن تتكسر ضلوعها ، تنزلق إلى أعلى فتتفادى هذا الخطر . إن مثل هذه السفينة يجب أن تكون من الخشب وأن تشبه جوانبها إلى حد كبير جوانب القصعة فتزلق كما ينزلق « لب البطيخ » إذا ضغط بين الأصابع !

ثم أعلن نانسن عن فكرته للجمعية الجغرافية في النرويج وللجمعية الجغرافية الملكية بلندن . بيد أن أعضاء الجمعية الأخيرة عارضوه بشدة ولكن تلك المعارضة لم تفت من عضده أو تفتّر من همته . وقد رد على هؤلاء الأعضاء بقوله « أشكركم أمها السادة لأن حججكم في المعارضة لم تقنعني تماماً . وأرجو أن تعلموا أن الهدف الأساسى من البعثة التي اعزم القيام بها هو استكشاف مجاهل المنطقة القطبية وليس تماماً الوصول إلى هذه النقطة الوهمية التي ينتهى عندها محور الأرض في الشمال » .

عاد نانسن من لندن عام ١٨٩٠ وقصد لتوه صديقه مصمم السفن النرويجي العظيم « كولين ارشر » Colin Archer الذى أعجب بفكرة نانسن وناقشا سوياً عدة تصميمات للسفينة المرتقبة ، التي كان لابد من أن يضمحى

وكان عليهم أن يقضوا الشتاء القاسى في تلك البقعة الخفية الموحشة من الشاطئ الغربى للجزيرة يشاركون الاسكيمو طعامهم من دهن الحيتان غير المطهى ومن جلود عجول البحر ولحوم الأسماك النيئة .

ويجد نانسن نفسه غير غريب على هذه الحياة البدائية ، وهو الرجل الذى بمكنته أن يكيف نفسه لكل الأجواء ، بل إنه ليستمتع بها ما دامت هى النوع الوحيد من الحياة الذى تجود به الطبيعة في تلك الأصقاع ولقد وصف أحد أعضاء البعثة — وهو الفيلد مارشال ديتريشيسون المتقدم ذكره — نانسن فيما بعد ذلك بزمان طويل بقوله « لقد وهبته الطبيعة قدرة لا حد لها على تحمل المشاق ، وقد كان دائماً هادئاً منزناً في أوقات الشدة ، ذا قريحة متوقدة يصدر الأوامر الصارمة الصائبة في الوقت المناسب وبسرعة . وبفضل بحيته السمحة وبساطته وصراحته وحبه للمرح تمكن من مصادقة الجميع وذلك دون أن يفقد شيئاً من هيئته وسلطانه كفائد » وتلك لعمري من أروع صفات القائد .

ولقد وصلت أنباء نجاح البعثة في اختراق جرينلاندة إلى النرويج وإلى أوربا عن طريق إحدى مراكز الصيد فحين عاد نانسن وصحبه استقبلوا بحفاوة منقطعة النظر وقابلتهم في عرض البحر مظاهرة من أكثر من مائتى مركب ، وانهاالت بعدها أوسمة الشرف على نانسن من كل صوب وحذب .

ولئن كانت أنباء البطولة والاستكشاف قد غطت على الأنباء العلمية للبعثة فلا يفوتنا أن نذكر أن نانسن كان أول من أماط اللثام عن طبيعة أرض جرينلاندة ، ورسم لها خريطة لأول مرة ، كما قام برصد خطوط الطول والعرض فوقها ، وحدد معالمها ، وأثبت أن أرضها تغطيها طبقات الجليد الدائم . كما كانت تلك الرحلة في حد ذاتها حافزاً لغيره على ارتياد المناطق القطبية الجبولة فيما بعد .

في تصميمها بعوامل كثيرة كالسرعة ودرجة الثبات في العواصف، بل والناحية الجمالية أيضاً وذلك في سبيل المتانة وقوة التحمل ، وأثر نانسن أن تكون سفينته صغيرة بالقدر الذي يسع أعضاء البعثة الذين حدد عددهم بثلاثة عشر ، وأن تتسع مخازنها لتكوين يكفي لخمسة أعوام ! ونزلت السفينة إلى الماء في ٢٦ أكتوبر سنة ١٨٩٢ ولأول وهلة كانت مثار ضحك البحارة وقباطنة السفن الذين لم تقع أعينهم على شيء مماثل من قبل ! أما طولها فكان ٤٣ متراً وعرضها ١٢ متراً وجوانبها من خشب غير منفذ للماء سمكه نحو نصف المتر ، وكانت تسير بالشرع وبماكينة بخارية شبيبت فيما بعد متاعب كثيرة للبعثة ، كما زودت السفينة بأحدث الأجهزة العلمية المعروفة وقتئذ .

وأيقن نانسن بفطرته أن نجاح مثل هذه البعثة يتوقف على عوامل ثلاثة : طعام وفير وملابس تقى من عضه البرد وحسن اختيار الرجال . ولما كان أخشى ما يخشاه رواد المناطق القطبية هو مرض الأسقربوط فقد جمع نانسن كميات كبيرة من الأطعمة المتنوعة الدهنية والبروتينية المختلفة والبقول الخفيفة في صفائح أحكم قفلها . وصمم بنفسه أنواع الفراء والأحذية اللازمة للبعثة ، وكذلك حشيات النوم والخيام الخفيفة والزحافات ، ومكتبة للقراءة تبرع بها أصدقاؤه وناشرو الكتب ، وذلك إلى كمية من الأسلحة والذخيرة . كما حمل على سفينته مجموعة من كلاب سيبيريا القوية لتجوز الزحافات على الجليد . وفي الواقع كانت كل معدات الرحلة من الهبات التي تبرع بها الأفراد والهيئات والتي بلغت جملتها ٢٥ ألف جنيه قبيل رحيل البعثة ، بلغ نصيب الجمعية الجغرافية الملكية بلندن منها ٣٠٠ جنيه فقط ، ذلك لأن أعضاءها كانوا غير مؤمنين بنجاح البعثة . . !

أما عن الرجال فقد تطوع منهم المئات ، أخذ نانسن خلاصتهم فقط وعددهم ثلاثة عشر كما أسلفنا ،

من بينهم اتوسفردرب Otto Sverdrup الربان المخنك رغم صغر سنه في ذلك الوقت والشاب امندسن Amundsen مستكشف القطب الجنوبي فيما بعد والملازم يوهانسون Johanson الذي قبل أن يعمل وقادراً على الماركب ليظفر بشرف الانتماء إلى البعثة .

وفي ٢٤ يونيو عام ١٨٩٣ أبحرت البعثة من ميناء أوسلو في اتجاه الساحل النرويجي إلى الشمال ، ومن أقصى نقطة في شمال النرويج اتجهت شرقاً نحو نوافازمليا Nova Zemlya وفي ٤ أغسطس شاهدت البعثة بشائر الجليد في بحر كارا الخفيف .

وبعد أن قطعت البعثة ما ينوف على ألف ميل في مجاهل المحيط شمال سيبيريا حاصرها الجليد وتجمد المحيط من حولها ، وكان نانسن يعتقد أن الجليد في دورانه حول القطب سيحمل السفينة إليه ما لم تعترض طريقها أرض مجهولة . ولقد تحققت نبوءة نانسن في دوران الجليد رغم أنه لم يصل إلى القطب . ففى ٧ نوفمبر ١٨٩٣ وجدت البعثة نفسها في المكان الذي كانت فيه في ٢٠ سبتمبر من تلك السنة . وبين ١٥ ديسمبر ١٨٩٣ أول أبريل ١٨٩٤ عبرت خط عرض ٨٠ شمالاً ثلاث مرات وهي هائمة مع الجليد .

ورواد المناطق القطبية يعرفون جيداً كآبة الشتاء في تلك الأصقاع : فالسما مظلمة أبداً ، سواء بالليل أو بالنهار ، لا يسمع إلا عواء الذئب والذئبة القطبية تمزق سكون الفضاء أو صرير الرياح الخفيف أو أصوات فرقة الثلوج في تحطمها أو تلاطمها . وحياة حفنة من الرجال محبوسين داخل سفينة كهذه لمدة سبعة عشر شهراً تبعث على السأم والكآبة من غير شك .

ولا ريب أن نانسن نفسه قد أنتابته حالات من السأم والمرارة حين وجد نفسه غير قادر على أن يفعل شيئاً . ولقد صور هو مثل هذه الحالة التي تنتاب الرجال وتودى ببعضهم إلى اليأس أو الجنون أو تدفعهم على أن يأخذوا حياتهم بأيديهم ، فيقول في مذكراته .

« إن وجودنا بلا عمل يكاد يمزق نفسى . إن الحياة كئيبة مثل كآبة ليالى الشتاء من حول المركب . . لقد غربت الشمس عن حياتنا إلا عن الماضى أو عن المستقبل البعيد جداً . . أود لو حطمت هذه الكآبة . . لأجد متنفساً أخرج إليه . هل من الممكن أن تحدث معجزة ؟ ألا تهب عاصفة تمزق هذا الجليد الذى يحاصر المركب وتدفعها إلى البحر الطليق المائج ؟ مرحباً بالأخطار طالما هى تعطينا الفرصة لنفعل شيئاً بنفس به عن هذه الطاقة المكبوتة . . لتجعلنا نصارع فى سبيل النجاة بأنفسنا ، ونتحرك إلى الأمام . . » .

ورغم ذلك فقد طالما شغل أعضاء البعثة وقتهم فى عمل شئ مفيد بجانب الأرصاد العلمية التى جمعوها وسبر أعماق المحيط من تحت طبقات الجليد التى تغطيه . فقد صمم « سفردرب » مصيدة لصيد الدببة وصنع نانسن قوارب خفيفة يتنقل بها فوق برك الماء المتخلفة بين الجليد ، كما نسخوا مذكراتهم مرات عديدة وشغلوا أنفسهم بالقراءة المفيدة .

ورغم أن « فرام » تحملت كافة أنواع الضغوط التى تعرضت لها - إلا أن القوم كثيراً ما تعرضواهم أنفسهم لأوقات عصيبة فى انتظار المكروه ، ويصف نانسن ليلة ليلاء من تلك الليالى فيقول :

« بدأت السفينة تتحشرج عند المؤخرة فى الساعة السابعة والنصف والجليد يضيق الخناق حولها . سمعنا كما لو أن شلالاً تنصب مياهه بقوة وعنف فوق رؤوسنا كتل الجليد تتضاغط وتتصدع محدثة فرقعة مريعة : أخذت المسافة تضيق من حول المؤخرة بين حائطين من جبال الجليد . السفينة تعاني صدمات مرعبة ترتعد لها جوانبها فى موجات تنتشر فى اتجاه المقدمة . إننا نرجع البصر فى سكون الليل فلا نرى شيئاً من حلكة الظلام . الطرقة الخيفة تنتشر إلى الأمام . . لا يزال صوت الشلال قوياً متواصلاً . لى لأشعر ببرد شديد . أحاول أن أشغل نفسى بالكتابة وحين شرعت فى الجلوس على

مكتبى بدأت السفينة ترتعد وتتحشرج مرة أخرى : . . لكأن فرقعة الضغط على جوانبها هى هزات أرضية عنيفة متواصلة : . . أشد الضغوط عنفاً يبدأ الآن . . يجب أن أصدع إلى « الكورته » وأأمل . . حالما فتحت باب « القمر » أصم الصوت أذنى وصدنى . . ثم أعقب ذلك لحظات تغير فيها اتجاه الضغط . . إنه ينبعث من أسفل الآن . . إن هذا لعلامة على أن « آلام المخاض » قد بلغت أشدها وستفعل السفينة من مصيدة الجليد الخيفة إن كتل الجليد لتشبه حيات مفزعة تتلوى وتفتح تحت قبة السماء الصافية ذات النجوم التى لا تعكر صفوها سوى التألق القطبى (Aurora Borealis) على شكل حية تسعى هى الأخرى فى برج السماء عند الشمال الشرقى . . وفجأة يتذكر نانسن أنه قد وضع ترمومتراً فى شق من الثلوج خارج السفينة فيخشى عليه من الكسر ، وينسى شاعريته ويهرول لإنقاذه .

لقد وجد نانسن سفينته حبيسة الجليد لا تتحرك شيئاً يذكر مع الجليد الهائم فوق سطح المحيط المتجمد فقد قطعت درجة واحدة من درجات العرض فى نحو خمسة شهور ، إنه لن يبلغ القطب على هذا الحساب قبل خمس شهوراً ، وها هم قضوا قرابة عامين أسرى للجليد ، فلا بد من مخرج من هذا المأزق ! وسرعان ما أيقن نانسن أنه لا بد من تعديل الخطة فليذهب هو ورفيق له على الزحافات ومعهم بعض المؤن والكلاب صوب القطب الشمالى نفسه . وليودع سفينته « فرام » وركابها .

وجاءت اللحظة الحاسمة فقد سلم قيادة السفينة إلى « اوتو سفردرب » وحمل متاعه هو ورفيقه يوهانسون ومعهما بعض الزحافات ، ٢٨ كلباً قدر لهم الهلاك عن آخرهم فى تلك المغامرة وفى ظهر ٢٠ فبراير سنة ١٨٩٥ دوت طلقة نارية فى سماء أرض الجليد مؤذنة ببداية المغامرة الخطيرة ، وانطلق الرجلان فى الفضاء الفسيح تحت رحمة الأقدار وذلك فى اتجاه الشمال الغربى ومعهما من المؤن ما يقيم أود الرجل لمائة يوم ، وما كانا ليريا سوى حقول الجليد الممتدة إلى ما لا نهاية . . .

١- يعتبر نانسن أول من اخترق المحاهل القطبية في المحيط المتجمد الشمالى سيراً على الأقدام أو بالزحافات لشهور طويلة .

٢- أثبت عدم وجود قارة قطبية في الشمال أو أراضي جديدة شمال جرينلاندة .

٣- برهن نانسن على أن ثلوج المحيط المتجمد الشمالى تتحرك حركة دائرية حول القطب . وقد حملت هذه الثلوج السفينة « فرام » من شواطئ سيبيريا حتى خط عرض ٨٥° شمالاً على مشارف المحيط الأطلسى .
٤- أثبت نانسن أن المحيط المتجمد الشمالى محيط عميق يزيد عمقه على ٢٠٠٠ قامة ويزداد عمقاً في اتجاه القطب الشمالى .

٥- دون نانسن في مذكراته العلمية كثيراً من الأرصاد عن الأعماق والتيارات والمناخ ، كما رسم خرائط دقيقة للمنطقة القطبية .

ورغم أن القرن التاسع عشر قد انتهى دون أن يصل أحد إلى القطب الشمالى نفسه ، إلا أن رحلة نانسن في حد ذاتها قد حفزت غيره على أن يطرق تلك المحاهل . وقد تم هذا العمل أخيراً على يد الرحالة الأمريكى ادوارد بيرى E. Peary الذي كان أول إنسان وطئت قدماه موقع القطب الشمالى وذلك في السادس من أبريل عام ١٩٠٩ .

* * *

أما عن القطب الجنوبى فقد تم ارتياده على أيدي امندسن Roald Amundsen رفيق نانسن القديم في رحلات الشمال ، والذي استأذن قائده نانسن في أن يأخذ السفينة « فرام » في رحلة أخرى إلى الأصمراع الشمالية وبدلاً من أن يقوم بتلك الرحلة أخذ السفينة إلى القارة القطبية الجنوبية ونجحت بعثته في ارتياد تلك القارة لأول مرة ورفعت العلم بقيادته فوق القطب الجنوبى نفسه ولأول مرة في تاريخ البشرية في ١٤ ديسمبر عام ١٩١١ وذلك بشهر واحد قبل وصول

لقد كانت فعلاً مغامرة مخوفة بالمخاطر ، واصلاً فيها السير ليلاً ونهاراً في درجات من الحرارة تنخفض عن أربعين درجة تحت الصفر المئوى في كثير من الأحيان . ولقد كان من الممكن أن يصل الرجلان إلى القطب نفسه لولا أن موجة غير عادية من الطقس الحار اعترضت سبيلهما وذلك يوم ٨ أبريل عام ١٨٩٥ ، أذابت الجليد وكونت بركاً ومستنقعات رقت لها صفحة الجليد فوق المحيط فعوقبهما عن السير ، وتعرضا للغرق في أكثر من مرة لانهيار الجليد من تحتهما ، أضف إلى ذلك الليل والرطوبة التى كانت لا تحتمل وأمام هذا الأمر اضطر نانسن ورفيقه أن يعودا إلى الجنوب ، وكانت أقصى نقطة قد وصلا إليها شمالاً هى عند خط العرض ٨٦° ١٥' ولا تبعد عن القطب سوى ٢٢٤ ميلاً ، وهى مسافة لا يستغرق قطعها سوى بضعة أيام لولا موجة الحر لسوء حظهما . وعلى أى الأحوال فقد كانت تلك النقطة هى أقرب نقطة من القطب الشمالى وصل إليها إنسان حتى نهاية القرن التاسع عشر .

وفي شهر أغسطس من تلك السنة وصل الرجلان جنوباً إلى أرض فراتز جوزيف Franz Josef Land على خط العرض ٨٠° شمالاً وصمم نانسن أن يقضى الشتاء القادم في تلك البقعة ، فبنى هو وزميله لهما كوخاً من الأحجار عاشا فيه ثمانية أشهر ، وكان الموءن قد نفذ فاضطرا للاعتماد على ما تصطاده أيديهم من الدببة القطبية أو الأرانب وحيوان البحر ، ومرت عليهم عواصف الشتاء القطبى العاتية بسلام .

وفي شهر مايو عام ١٨٩٦ واصل نانسن سيره إلى الجنوب فوق الثلوج وتقابل بالصدفة مع بعثة جاكسون الإنجليزية وهناك علم بنبا وصول السفينة « فرام » سالمة إلى النرويج .

ولبعثة نانسن أهمية خاصة في تاريخ الكشف الاقياانوس بصفة عامة وكشف المناطق القطبية بصفة خاصة وذلك للأسباب الآتية :

اليوم ، منها جهازه المعروف باسمه لجمع عينات المياه من أى عمق تحت سطح المحيط . ولقد كرمه أهل بلاده فجمعوا مالا كثيراً يصرف ريعه على البحث العلمى وأوقفوه باسمه لهذا الغرض .

* * *

وحيث أعلنت الحرب العالمية الأولى فى أغسطس عام ١٩١٤ وقفت النرويج على الحياد وتبعها دول اسكندناوة الأخرى وفى خلال سنوات الحرب وما بعدها لمع اسم نانسن كسياسى من الدرجة الأولى ، فعينه بلاده رئيساً لمجلس الدفاع فيها ، وفى عام ١٩١٧ أوفد فى مهمة خاصة لمقابلة رئيس جمهورية الولايات المتحدة هربرت هوفر لإرسال إغاثة عاجلة للنرويج حين اجتاحتها المجاعة بسبب الحرب .

وفى عام ١٩١٩ كانت المجاعة تفتك بالملايين فى روسيا أيضاً فذهب نانسن لنجدها وجمع المعونات والمواد الغذائية وبخاصة لسكان سيبيريا الذين كانت تربطه بهم صلات روحية كبيرة . هذا وقد عينته بلاده سفيراً فوق العادة لها فى إنجلترا .

وبعد انتهاء الحرب بذل جهوداً مضنية حتى أعاد أسرى الحرب المشردين إلى بلادهم وعلى يديه كان حل مشكلة اللاجئين الأرمن ، ويدين له آلاف الأسر منهم بالفضل وقد أطلق على جواز السفر الذى اقترحه ليحمله اللاجئين «جواز سفر نانسن» واحترمه كل الدول .

هذا وقد كان مندوباً لبلاده فى عصبة الأمم وعين رئيساً لعدة لجان فيها ، كما كانت له مواقف خطافية رائعة تنم عن شجاعته وإيمانه بمبادئ الإنسانية الرفيعة ، دون ما تحيز أو ممالأة لدولة من الدول ، الأمر الذى أكسبه احترام الجميع وتقديرهم . وكانت وفاته فى الثالث عشر من مايو عام ١٩٣٠ . ولكأنى به حتى لم يمت ، فحين زرت سفينة « فرام » قبل اليوم بعشر سنوات فى النرويج وجلستها كما وصفها فى كتابه وكأنها لم تتغير ، كما شاهدت فى « قمرته » معطفه من جلد الرنة وحذاءه ومذكراته وقد بنى القوم فوقها حظيرة تقيها من الثلوج ، وهى التى صنعت خصيصاً لتقاوم الثلوج !

البعثة الإنجليزية بقيادة الكابتن سكوت Scott الذى هلك هو ورجاله من البرد والجوع فى طريق عودتهم فوق ثلوج القارة القطبية الجنوبية .

٦ — السنين الأخيرة

عقب عودة نانسن من رحلة الأصقاع القطبية أضفيت عليه النياشين وأوسمة الشرف من الجمعيات العلمية ومنحته جامعة أكسفورد درجة الدكتوراه الفخرية كما عينته جامعة سانت أندروز St. Andrews فيها بعدمديراً لها .

وفى عام ١٩١٣ قام برحلة فى مجاهل سيبيريا مخضت عن كتاب قيم كتبه بعنوان « سيبيريا أرض المستقبل » ، كما نشر قبل ذلك وبعده كثيراً من البحوث العلمية العميقة منها كتابه عن « اقيانوغرافية الحوض القطبى » عام ١٩٠٢ ، وظواهر الأعماق فى الحوض القطبى عام ١٩٠٤ والبحار القطبية الشمالية عام ١٩٠٤ . كما نشر بالاشتراك مع هيلاند هانسن Helland-Hansen موسوعاته عن «بحر النرويج» و « مياه شمال شرقى الأطلنطى » عام ١٩٢٥ وسبتمبرجن عام ١٩١٥ كما كتب عن « الايزوستاسية » عام ١٩٢٢ و « قشرة الأرض » عام ١٩٢٧ وكل هذه الكتب والبحوث نشرها باللغة الإنجليزية التى كان يجيدها لإجادة تامة ، وذلك بالإضافة إلى كثير غيرها نشرها باللغة النرويجية . ويؤثر عنه أنه كان فناناً ضمن كثيراً من كتبه رسومات من عمل يده ، وخاصة للمناظر الطبيعية القطبية وجدير بالذكر أن فن « الفوتوغرافيا » فى ذلك الوقت كان فى بدايته ولذلك لم يعول نانسن كثيراً على التصوير الضوئى وبخاصة فى رحلاته التى يكتنفها الليل وتفسد فيها الأفلام الفوتوغرافية وتعرض للغرق .

هذا وقد قام نانسن بعمل رحلات علمية قصيرة إلى سبتمبرجن Spitzbergen وشمال الأطلنطى ومناطق أخرى كثيرة ، سواء على قواربه الخاصة أو على سفن البحث العلمى ، وترك للعلم كثيراً من الأجهزة العلمية التى صممها بنفسه ولا تزال يستعملها العلماء بكفاءة حتى